مقاربة فونولوجية
لأثر الوحدات الصوتية في مزية الكلام
The effect of acoustic units on the quality of speech Phonological approach

د. زكرياء سلمان
قسم اللغة العربية – جامعة القاضي عياض – مراكش – المغرب
salmane860@gmail.com

تاريخ الإيداع: 2019/05/05 **تاريخ القبول: 2019/07/15**

ملخص:

يعرض هذا المقال لموقف بعض القدماء والمعاصرين من الوحدات الصوتية وأثرها في مزية الكلام من خلال علم وظائف الأصوات. وبالرجوع إلى ما صنفه علماء العربية فإننا سنجدهم لم يكتفوا بمباحث الصوتيات المتعلقة بخصائص الحروف في جانبها الفيزيولوجي، ولم تقتصر دراستهم على علاقة الأصوات بالأبنية، بل امتدت جهودهم إلى نواح صوتية تتصل بالبلاغة، كما أشاروا إلى صلة الصوت بالدلالة. ومن ثم، سنفرق في مقالنا بين قضيتين: الأولى علاقة اللفظ بالفصاحة، والثانية، علاقة الصوت بالمعنى.

الكلمات المفتاحية: الوحدات الصوتية - الفونولوجيا – البلاغة – المعنى- الدلالة

Abstract:

This article aims to an overview of ancient and contemporary studies about acoustic units and their effect on the quality of langague of speech, from a phonological point of view. In return for the founds of the Arabic language researchers, we notice that they didn’t only focused on the acoustics studies related to the physiological characteristics of sounds, Nor their efforts have been limited on studying the relationship between phonemes and graphemes. But, they extended their researches to the acoustic tracks related to rhetoric, while indicating the existence of a link between the sound and the meaning. Therefore, we intend to talk about two things this article: the first one is the relationship between the sound and the

eloquence ، the second one is the relationship between the sound and the meaning.

Key words: Acoustic units - Phonology - Rhetoric - Meaning - Semantics

مقدمة

الحمد لله وحده والصلاة والسلام على نبينا محمد وعلى آله وصحبه. أما بعد،

نناقش في هذا المقال موقف بعض القدماء والمعاصرين من الوحدات الصوتية وأثرها في مزية الكلام من خلال علم وظائف الأصوات أو الفونولوجيا وهو فرع من الصوتيات يهتم بوظائف أصوات اللسان البشري التي لا تظهر إلا في التركيب وداخل البنية اللغوية.

وبالرجوع إلى ما صنفه العلماء فإننا سنجدهم لم يكتفوا بمباحث الصوتيات المتعلقة بطبائع الحروف في جانبها الفيزيولوجي، كما تمثله ظواهر الإدغام والإعلال الإبدال وغيرها، ولم تقتصر دراستهم على علاقة الأصوات بالأبنية كما هو الشأن عند اللغويين والمعجميين، بل امتدت جهودهم إلى نواح صوتية تتصل بالبلاغة، فيما عرف بموضوع التلاؤم والتنافر في التركيب، كما أشاروا إلى صلة الصوت بالدلالة.

ومن ثم، سنفرق في المقال بين قضيتين: الأولى علاقة اللفظ بالفصاحة، أي تلاؤم الكلمة داخل التركيب، والثانية، علاقة الصوت بالمعنى، أي تلاؤم الحروف في الكلمة ومدى تأثيره في الدلالة. وهاتان القضيتان متصلتان، وكلاهما وقع الخلاف فيهما بين ناف للفصاحة عنهما؛ حيث قالوا إن الحروف المنطوقة لا توصف بفصاحة من غير أن تدل على معان متلائمة، وإن الألفاظ المفردة لا توصف بفصاحة من غير النظم والتأليف، وبين مثبت أثَرَ الوحدات الصوتية في فصاحة الكلام ومعناه.

المبحث الأول: صلة إيقاع اللفظ بالفصاحة

يراد بإيقاع اللفظ في علاقته بالفصاحة تبَيُّن مدى صحة القول: إن مراعاة الإيقاع مدخل إلى الكلام الفصيح عن طريق تحقيق نوع من الانسجام فيه.

وأول من انتصر لهذا الأمر ابن سنان الخفاجي الذي درس في مبدأ كتابه "سر الفصاحة" مبحث الحروف سواء مفردة منها أو مركبة، تمهيدا لجعلها مساهمة في التلاؤم، وهو أحد أوجه الإعجاز القرآني لديه؛ لأن مبدأ الخفة عنده مؤثر في الفصاحة. وهو الأمر الذي صنعه أيضا، الرازي في نهاية الإيجاز؛ حيث تطرق إلى الحروف تمهيدا لقبول تأثيرها في الكلام العالي. كما

نجد الجرجاني، في كتابه المقتصد شرح التكملة، قد أبان عن موقفه من عدة قضايا صوتية مرتبطة بالإيقاع مثل الإدغام والإعلال والإبدال، ودرس أحكامها، وقدم لها تعليلات صوتية، وظهر من خلال مناقشته تلك الظواهر، وما أصدره من أحكام تقويمية نحوها، أنه حريص على مبدأ الانسجام الصوتي الذي يضمن صفاء الحروف وحسن الأداء، مما يؤدي إلى وجود إيقاع لفظي قائم على الخفة ونبذ الثقل ومراعاة قاعدة المجهود الأدنى. وهذا ما عرف لدى البلاغيين بالتلاؤم والتنافر بين الحروف؛ حيث وضعوا قواعد بغية الوصول إلى الصحة الخارجية للكلام وتحقيق جودته؛ فقالوا عند حديثهم عن شروط فصاحة الكلمة إنه كلما كانت الحروف أشد تباعدا كانت إلى الائتلاف أقرب. كما أقرَّ الجرجاني عند كلامه عن صفات الحروف، بحُسن حروف تؤثر في ألفاظها، وتأخذ مكانها في أفصح الكلام وأجوده، وسماها المستحسنة، وذكر في مقابلها حروفا غير مستحسنة، وهذا كله يتعارض مع موقفه من اللفظ في كتابه دلائل الإعجاز؛ حيث سلبه المزية، ونفى أن يكون له دخل في فصاحة الكلام.

وهنا تبرز أسئلة مفادها، هل يرى عبد القاهر أن لسهولة الألفاظ وعذوبتها أثرا في فصاحة الكلام وبلاغته، ما دام قد درسها وأكد على قاعدة الخفة في النظام الصوتي للعربية ؟ وهل يُعَدُّ الجانب الصوتي مكونا من مكونات الجمال لديه، ووجها من وجوه المفاضلة والمزية والإعجاز؟ وهل تناقض الجرجاني بين تنظيراته في كتبه النحوية والتي أقر فيها بالمعطيات الصوتية التي اعتمدها القائلون بمزية الأصوات وبين ما تبناه في دلائله؛ حيث صرح هناك، كما سيأتي، بمواقفه من الصوت واللفظ في صلتها بمزية الكلام، وكانت واضحة وحاسمة في كثير منها؛ إذ رفض أن يكون لهذا التلاؤم اللفظي أثر في الجمال والجودة ؟

وإجابة عن هذه الأسئلة، سنناقش ثنائية اللفظ والمعنى – والتي لها علقة بمبحثنا- وهذه القضية تعد من كبرى القضايا التي شغلت العلماء القدماء، فقد احتدم الجدال بينهم في تحديد المستحق للريادة، وأي العنصرين هو المسؤول عن إعطاء النص الأدبي قيمته الفنية "وهذا خلاف قديم لا مجال للشبهة فيه أو للشك في صحته" [(1)] ، وكان المحفز لهذا الصراع الفكري العميق الإعجاز القرآني؛ وذلك حين بُحث عن مكمن مزية القرآن، أهي في لفظه وتأليفه؟ أم في المعنى ودلالته؟ أم فيهما معا ؟

وجدير بالقول في هذا المقام إن مبحث اللفظ والمعنى في موروثنا الفكري قد بلغ من التوسع والتداخل حدا كبيرا؛ بحيث خاضت فيه حقول معرفية متعددة شملت النحو والبلاغة وأصول الفقه وعلم الكلام وغير ذلك. مما يجعل الإحاطة بكل شواغله مطلبا عسير التحقق. كما لا يمكننا التعريج عن بدايات الحديث عن هذه القضية منذ أن بدأ الجاحظ تدوينها في القرن

الثالث الهجري، حتى لا نتوسع ونبتعد عن هدفنا الأساس من التطرق إلى هذه القضية؛ لذا فإننا سنكتفي بمعالجة مسألة اللفظ والمعنى بما يرتبط بمدى صحة القول بمزية الأصوات، وسنعالجها بمنظور عبد القاهر؛ حيث إنه قد أولاها عناية خاصة في رده على اللفظيين المثبتين فاعلية الألفاظ.

هذا وقد اشتهر بين الدارسين، أن الجرجاني رفض إرجاع المزية إلى الألفاظ، وطفق يهدم قول من قال إن مزايا الكلام وبلاغة البيان راجعة إليها، فقال " فإذا رأيت البصير بجواهر الكلام يستحسن شعرا أو يستجيد نثرا، ثم يجعل الثناء عليه من حيث اللّفظ فيقول: حلو رشيق، وحسن أنيق، وعذب سائغ، وخلوب رائع، فاعلم أنه ليس ينبئك عن أحوال ترجع إلى أجراس الحروف، وإلى ظاهر الوضع اللغويّ، بل إلى أمر يقع من المرء في فؤاده، وفضل يقتدحه العقل من زناده. "[2]

وهذا كلام واضح الدلالة من عبد القاهر في أن الوصف بالحلاوة والرشاقة والأناقة والعذوبة والروعة لا يخص الألفاظ التي هي أصوات وأجراس أو يخص دلالاتها الحقيقية الوضعية، وإنما هذه أوصاف للمعاني التي تَقر في النفس والعقل. ذلك أن الألفاظ كما يقول الجرجاني " لا تتفاضَلُ من حيث هي ألفاظٌ مجرَّدة، ولا من حيثُ هي كلمٌ مفردةٌ، وأن الفضيلة وخلافها، في ملائمة معنى اللفظة لمعنى التي تليها "[3] وبذلك لا يمكن تعيين ألفاظ بذاتها تكون ذات فضيلة خاصة في جميع الأحوال. ومن ثم، لم يألُ عبد القاهر جهدا في التشنيع على القائلين بفاعلية الألفاظ (الأصوات)، وردِّ مذهبهم، ووصْفِهم بأقذع الصفات، وذلك في مواضع كثيرة من دلائله.

غير أننا نجد الجرجاني في بعض أقواله يقبل تأثير مذاقة الحروف في جودة الكلام، ويدعو إلى جعله تابعا للنظم وفرعا عنه ولم يَنْفِه البتَّة، وأن معارضته موجهة لمن حصر الإعجاز في اللفظ دون مراعاة للمعنى، وفي ذلك يقول " وههنا أمرٌ عجيبٌ، وهو أنَه معلومٌ لكلِّ مَنْ نَظَر، أنَّ الألفاظَ من حَيْثُ هي ألفاظٌ وكَلِمٌ ونُطْقُ لسانِ، لا تخْتصُّ بواحدٍ دونَ آخر، وأنها إنما تختص إذا توخي بها النظْمُ . وإذا كان كذلك، كان مَنْ رفَعَ "النظْمَ" مِن البين، وجعَلَ الإعجازَ بجُملته في سهولةِ الحُروف وجَرَيانها، جاعلاً له فيما لا يصِحُّ إضافتُه إلى الله تعالى. وكَفَى بهذا دليلاً على عَدمِ التوفيق، وشدَّةِ الضلالِ عن الطريق. "[4]

وأوضحُ منه قوله " واعلم أنا لا نأبى أن تكون مذاقة الحروف وسلامتها مما يثقل على اللسان، داخلاً فيما يوجب الفضيلة، وأن تكون مما يؤكد أمر الإعجاز. وإنما الذي ننكره ونُفَيِّل[5] رأي من يذهب إليه أن يجعله معجزاً به وحده، ويجعله الأصل والعمدة، فيخرج إلى ما

ذكرنا من الشناعات " [6] ، ويضيف "ثم إن العجب كل العجب ممن يجعل كل الفضيلة في شيء، هو إذا انفرد لم يجب فضل البتة، ولم يدخل في اعتداد بحال. وذلك أنه لا يخفى على عاقل أنه لا يكون بسهولة الألفاظ وسلامتها مما يثقل على اللسان اعتداد حتى يكون قد ألف منها كلام. ثم كان ذلك الكلام صحيحاً في نظمه، والغرض الذي أريد به. وأنه لو عمد عامد إلى ألفاظ فجمعها من غير أن يراعي فيها معنى، ويؤلف منها كلاماً، لم تر عاقلاً يعتد السهولة فيها فضيلة. لأن الألفاظ لا تراد لأنفسها، وإنما تراد لتجعل أدلة على المعاني. فإذا عدمت الذي له تراد، اختل أمرها فيه لم يعتد بالأوصاف التي تكون في أنفسها عليها، وكانت السهولة وغير السهولة فيها واحداً "[7] ، وإذا كانت الفقرة السابقة " اعلم أنا لا نأبى " تتضمن اعترافا بأن مذاقة الحروف يمكن أن يكون لها مدخل في تأكيد الإعجاز، فإن هذه الفقرة "ثم إن العجب" تتضمن شرطا لازما عند الشيخ لقبول هذا الأمر، ويتلخص " في ألا يعتد بمذاقة الحروف وسهولتها حتى تكون قد ألف منها كلام صحيح الغرض بمعنى ألا تكون تلك السهولة، والخفة غاية في ذاتها و"إنما تراد لتجعل أدلة على المعاني " فكل ميزة صوتية من أجل ميزة معنوية .و هذا يعني أن عبد القاهر لا يمنع نسبة بعض الفضل، و بعض المزية لخفة الحروف وهو ينسجم مع ما صرح به عبد القاهر قبل في هذا السياق من أنه لا يأبى أن تكون مذاقة الحروف داخلا فيما يوجب الفضيلة ، و أن يكون مما يؤكد الإعجاز ، وإنما الذي ينكره أن يجعله الأصل والعمدة في الإعجاز وهو بهذه الرؤية لا يختلف معه أحد ." [8] هذا هو الموقف الوسطي للجرجاني من العنصر الصوتي.

المبحث الثاني: علاقة اللفظ بالدلالة

أ- اختلاف العلماء حول أثر الصوت في الدلالة

تساءل اللغويون منذ القديم عن طبيعة العلاقة بين الدال "اللفظ المسموع " وبين المدلول المعنى المفهوم، وأثيرت بينهم إشكالات منها: هل يتفاعل الصوت مع الدلالة ؟ وهل العلاقة بين الدال (الصوت) والمدلول (المعنى) اعتباطية أم مقصودة ؟ و هل يمكن القول بالقيمة التعبيرية للصوت ؟

واختلفوا حول العلاقة بين الصوت والمعنى، وانقسموا إلى فريقين:

1- فريق يقول بفكرة اعتباطية العلاقة بين اللفظ والمعنى (الدال والمدلول)، وهم السواد الأعظم من اللغويين؛ أي أنهم لا يرون صلة بين العنصرين؛ حيث اختار الكثيرون أن الأصوات

لا تخضع لأي نظام عقلي في تكونها وصدورها والنطق بها، ويقولون إن دلالة الألفاظ على معانيها عرفية اصطلاحية وليست ذاتية.

2- وفريق يرى أن لكل لفظ معنى بما توحي به أصواته. ومنطلقهم أنه لا يعقل أن تكون اللغة العربية المختارة وعلى رأسها كلام الله واردة عن غير قصد، وأن الله لم يخلق شيئا عبثا بل لحكمة بالغة.

وإذا ما يممنا شطر عبد القاهر لنستقرئ رأيه في القضية، وجدناه ينتصر للقول باعتباطية اللغة، فما يهم الجرجاني من ألفاظ اللغة قيامها بوظيفتها الدلالية على أكمل وجه، بغض النظر عن أشكال هذه الألفاظ وطبيعة أجزائها، إذ يرى " أن الكلمة مهما كانت، لا توصف بقبح أو حسن فكلمة (فرس) ليست أدل على معناها من كلمة (أسد) في العربية ."[9]

وقد حسم أهل التحقيق من العلماء في المسألة، وجاؤوا بالقول الفيصل فيها، فقال شيخ الإسلام ابن تيمية في المسودة "ذهب الجمهور إلى أن الألفاظ دالة على المعاني بالوضع لا لذواتها، وشذ عباد بن سليمان الصيمري فزعم أن دلالتها لذواتها وهذا باطل باختلاف الاسم لاختلاف الطوائف مع اتحاد المسمى."[10]، وأضاف ابن تيمية " اللفظ المفرد لا يدل المستمع على معناه، إن لم يعلم أن اللفظ موضوع للمعنى ولا يعرف ذلك حتى يعرف المعنى .فتصور المعاني المفردة يجب أن يكون سابقا على فهم المراد بالألفاظ."[11]

وهنا لا بد من تمييز غاية في الأهمية، وهو أن هذا النفي الوارد في كلام شيخ الإسلام ابن تيمية "متعلق بالدلالة الطبيعية أو الذاتية للأصوات، وهي القائمة على تصور يفترض أن لكل صوت دلالة طبيعية على معنى، وأنه بمجرد النطق بهذا الصوت يحضر هذا المعنى إلى الذهن. غير أنه لا بد من التمييز -فيما يتعلق بصلة اللفظ بالمعنى- بين أمور مختلفة تذكر في هذا الموضوع :

1-حكاية الأصوات: ففي اللغة ألفاظ مثل : صليل السيوف وصهيل الفرس وخرير الماء ترتبط أصواتها بمعانيها، ولكن هذا الارتباط بين مثل هذه الألفاظ ومعانيها لا يسوغ إطلاق القول بالصلة الطبيعية بين اللفظ والمعنى؛ لأن تلك الألفاظ كما عبر الخليل من باب الحكاية، أي أنك تسمع صوتا فتحاول أن تجد ما يحاكيه مما ينطق به الإنسان، فليس الصوت دل بطبعه على معناه، وإنما الإنسان هو الذي عبر عن مثل هذه المعاني من المسموعات بأصواتها، فالمعاني هي التي أوحت بأسمائها من أصواتها.

2- المناسبة بين اللفظ والمعنى: ذلك أن القول بوجود مناسبة بين اللفظ ومعناه أمر يختلف كل الاختلاف عن القول بالصلة الذاتية بين اللفظ ومعناه. فالمناسبة بين اللفظ و المعنى يقول بها كثير من العلماء، وهي إنما يدركها العلماء بعد طول تأمل ونظر، وهي إنما تكون بعد أن يعلم أن هذا اللفظ قد وضع لذلك المعنى، فيأتي عالم اللغة ويمعن النظر في أصوات هذا اللفظ، ويحاول أن يربط بينها وبين ما تدل عليه بنوع رابط و إن كان متكلفا ."[12]

فوجه الجمع من ثمة ، بين نفي وجود علاقة الصوت بالمعنى أولا وبين إثباتها ثانيا أمر ممكن ، وخلاصة الإجابة عن ذلك " أن العلاقة الطبيعية المعللة حاضرة بين الدال والمدلول، غير أنها لا تحكم جميع اللغة، والعلاقة الاعتباطية أيضا حاضرة ما دمنا عاجزين عن تعليل علاقة كل دال بمدلوله .فالعلاقتان معا متعايشتان في اللغة العربية ."[13]

ب- إشارات العلماء على وجود المناسبة بين اللفظ (المسموع) والمعنى

اكتشف بعض العلماء في طائفة من الألفاظ العربية صلة بين ألفاظها ومعانيها، فبينوا أن العربي كان يربط بين الصوت والمعنى، فيجعلهما متشابهين ومتكاملين، فيدل على المعنى الضعيف بأصوات ضعيفة، وعلى المعنى القوي بأصوات قوية. وفيما يلي نقولات عن بعض أشهر القائلين بالمناسبة:

**** أبو الفتح ابن جني (392هـ)**

كان ابن جني أكثر اللغويين المتحمسين لفكرة الصلة بين اللفظ والمدلول؛ حيث عقد لها فصولا أربعة في كتابه الخصائص متلمسا هذه الصلة فيما يعرض له من ظواهر صوتية وهذه المباحث هي: (تلاقي المعاني على اختلاف الأصول)، و(المباني والاشتقاق الأكبر)، و(تصاقب الألفاظ لتصاقب المعاني)، و(إمساس الألفاظ أشباه المعاني).

وضرب أبو الفتح أمثلة عديدة في كتابيه الخصائص والمحتسب؛ ليبرهن أن تقارب مخارج الحروف أو تقارب الأصوات في الألفاظ إنما هو سبب لتقارب المعاني التي تؤديها هذه الأصوات، مثلما ذهب إليه في تعليل مجيء الهمزة بدل الهاء؛ وذلك لقوتها ومناسبتها لسياق آية سورة مريم حيث يقول " ومن ذلك قول الله تعالى: (أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤُزُّهُم أَزًّا)[14] أي:" تزعجهم وتقلقهم. فهذا من معنى تهزهم هزًا، والهمزة أخت الهاء؛ فتقارَبَ اللفظان لتقارب المعنيين، وكأنهم خصوا هذا المعنى بالهمزة؛ لأنها أقوى من الهاء. وهذا المعنى أعظم في النفوس من الهز؛ لأنك قد تهز ما لا بال له كالجذع وساق الشجرة ونحو ذلك" [15] . فيرى ابن جني أن المعنى القوي عُبِّر عنه بالصوت القوي، فالأز بالهمزة أقوى من الهز بالهاء.

**** أبو القاسم الزمخشري (538ه)**

يؤكد الزمخشري هذا الأمر في بعض المواضع من تفسيره، ذلك أن تخير القرآن للألفاظ ذات الدلالة الصوتية يأتي مراعيا للقوة التعبيرية لتلك اللفظة. ومن ذلك ما جاء في تفسيره لقوله جل من قائل { فيهما عينان نضاختان. }[16] قال" فوارتان بالماء، والنضخ أكثر من النضح؛ لأنّ النضح -غير معجمة- مثل الرش."[17] وهذا بلا شك تأثر بكلام ابن جني في الآية ذاتها حين يقول " والنضخ أقوى من النضح . قال الله عز وجل " فيهما عينان نضاختان " فجعلوا الحاء لرقتها للماء الضعيف والخاء لغلظه لما هو اقوى منه " [18]

وقال ابن جني عن الآية ذاتها في المحتسب " وقالوا: النضح بالحاء -غير معجمة- للماء السخيف يخف أثره، وقالوا: النضخ بالخاء لما يقوَى أثره فيبُل الثوب ونحوه بَلَلا ظاهرا؛ وذلك لأن الخاء أوفى صوتا من الحاء. ألا ترى إلى غلظ الخاء ورقة الحاء."[19]

ومن المواضع التي احتفى فيها الزمخشري بالألفاظ؛ حيث عدها منفردة حاملة لمعنى، ما أورده في تفسير لقوله تعالى " { فَكُبْكِبُواْ فِيهَا هُمْ } [20] أي الآلهة { وَٱلْغَاوُونَ } وعبدتهم الذين برزت لهم الجحيم. والكبكبة: تكرير الكب، جعل التكرير في اللفظ دليلاً على التكرير في المعنى، كأنه إذا ألقى في جهنم ينكب مرة بعد مرة حتى يستقرّ في قعرها." [21] فجار الله الزمخشري يقْرِن هنا بين التكرير وهو عنصر صوتي وبين معنى الآية .

**** ابن قيم الجوزية (751ه)**

وهذا الإحساس اللغوي نجده عند ابن القيم، الذي كان كثير التأمل في هذه اللغة الشريفة. وقد استفاد من شيخه ابن تيمية، وقال بالمناسبة بين الحروف ومعانيها وتحمس لذلك ومما يؤكد تأثره بشيخه قوله " وقلت يوما لشيخنا أبي العباس بن تيمية قدس الله روحه قال ابن جني: مكثت برهة إذا ورد علي لفظ آخذ معناه من نفس حروفه وصفاتها وجرسه وكيفية تركيبه، ثم أكشفه فإذا هو كما ظننته أو قريبا منه فقال لي رحمه الله: وهذا كثيرا ما يقع لي." (22)

ومما جاء عن ابن القيم عند حديثه عن لفظ الجلالة "اللهم " " وقيل زيدت الميم للتعظيم والتفخيم كزيادتها في زرقم لشديد الزرقة وابنم في الابن، وهذا القول صحيح ولكن يحتاج إلى تتمة، وقائله لحظ معنى صحيحا لا بد من بيانه وهو أن الميم تدل على الجمع وتقتضيه ومخرجها يقتضي ذلك، وهذا مطرد على أصل من أثبت المناسبة بين اللفظ والمعنى، كما هو مذهب أساطين العربية وعقد له أبو الفتح بن جني بابا في الخصائص وذكره عن سيبويه،

واستدل عليه بأنواع من تناسب اللفظ والمعنى، ثم قال ولقد كنت برهة يرد علي اللفظ لا أعلم موضوعه وآخذ معناه من قوة لفظه ومناسبة تلك الحروف لذلك المعنى، ثم أكشفه فأجده كما فهمته أو قريبا منه، فحكيت لشيخ الإسلام هذا عن ابن جني، فقال وأنا كثيرا ما يجري لي ذلك، ثم ذكر لي فصلا عظيم النفع في التناسب بين اللفظ والمعنى ومناسبة الحركات لمعنى اللفظ."[23]

وراح ابن القيم يستعرض الكثير من النماذج من هذا القبيل وقال " وهذا أكثر من أن يحاط به وإن مد الله في العمر وضعت فيه كتابا مستقلا إن شاء الله تعالى. ومثل هذه المعاني يستدعي لطافة ذهن ورقة طبع ولا تتأتى مع غلظ القلوب والرضى بأوائل مسائل النحو والتصريف دون تأملها وتدبرها، والنظر إلى حكمة الواضع ومطالعة ما في هذه اللغة الباهرة من الأسرار، التي تدق على أكثر العقول وهذا باب ينبه الفاضل على ما وراءه "ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور النور" النور آية:40 " [24]

ويقرر ابن القيم في بدائع الفوائد بصورة جلية وواضحة تحقيق المناسبة بين اللفظ والمعنى فيقول" المناسبة الحقيقية معتبرة بين اللفظ والمعنى طولا وقصرا، وخفة وثقلا، وكثرة وقلة، وحركة وسكونا، وشدة ولينا، فإن كان المعنى مفردا أفردوا لفظه، وإن كان مركبا ركبوا اللفظ، وإن كان طويلا طولوه، كالقطنط والعشنق للطويل، فانظر إلى طول هذا اللفظ لطول معناه وانظر إلى لفظ بحتر وما فيه من الضم والاجتماع لما كان مسماه القصير المجتمع الخلق وكذلك لفظة الحديد والحجر والشدة والقوة ونحوها تجد في ألفاظها ما يناسب مسمياتها " [25].

المبحث الثالث: موقف المعاصرين من أثر الصوت في مزية الكلام

أ- إنكارهم على الجرجاني إزراءه بالمكون الصوتي

عاب جل الدارسين على الجرجاني عدم اعتداده بالمكون الصوتي، ومنهم:

**** سيد قطب :**

يقول رحمه الله "إننا نختلف مع عبد القاهر في كثير مما تحويه نظريته هذه، بسبب إغفاله التام لقيمة اللفظ الصوتية مفردا ومجتمعا مع غيره، وهو ما عبرنا عنه بالإيقاع الموسيقي." [26]

****محمد زكي العشماوي:**

فرغم ثنائه الكبير على نظرية النظم لدى الجرجاني، إلا أنه قال " ولكننا على الرغم من اعتزازنا بهذا الأساس الهام الذي وضعه عبد القاهر لنقد الشعر وفهم الأدب، والذي التقت فيه فلسفة الفن بفلسفة اللغة، ما نزال نشعر بأن دراسته لوحدة اللغة، لم تكن دراسة كاملة تماما، فقد هوت من بين يديه بعض المسائل الهامة وعلى الأخص مسألة الصوت الوزن والإيقاع، فقد صرف عبد القاهر كل همه للدفاع عن قضية المعنى وفكرة النظم والصياغة، وأذهله طغيان تيار اللفظية، على التفكير النقدي من قبله؛ فشغله حماسه لإيقاف هذا التيار الجارف، عن رؤية بعض ما يتعلق بخصائص اللفظ الصوتية والموسيقية، و أثر هذه الخصائص فيما يحققه للشعر من قيمة ومن أثر .. فليس من شك في أن جانبا هاما من التجربة في الشعر مصدره الصوت والنغم..وكان الموقف يحتم على عبد القاهر أن يكشف علاقة الأصوات باللغة ووظيفتها في أداء المعنى."[27]

محمد أبو موسى:

في حين نجد محمد أبو موسى، بعد طول مصاحبته لفكر الجرجاني، وفهمه لمراده، ينفي عنه غضه من شأن المكون الصوتي حيث يقول " ولا أتصور أن يكون عبد القاهر وهو من هو في الحس باللمحة الدالة، قد أنكر هذه القيم الصوتية في بيان العربية؛ لأنها جزء من جوهر بلاغة هذا للسان، ليس في الشعر فحسب وإنما في النثر أيضا .. وأهم من كل هذا القرآن الكريم الذي ذكر الرماني أن التلاؤم فيه وهو النسق الصوتي لا غير وجه من وجوه إعجازه ." [28] ، ويضيف ملتمسا العذر للجرجاني " ولسنا مع الشيخ في إهدار هذه القيمة الصوتية في بناء الكلام، ولعل عذره في ذلك أنه كان يقتاد أبناء عصره قسرا إلى النظر في جوهر صنعة الكلام وتأليفه ورصفه، ونحته وسبكه، وحين تعظم في النفس العناية بشيء يصغر فيها العناية بغيره. "[29]

ثم يوضِّح أبو موسى موقف الجرجاني من الصوت ومراده من الهجمة على اللفظيين فيقول" نعم لقد أنكر عبد القاهر وغيره تكلف هذه الأحوال الإيقاعية التي ليس وراءها إلا شقشقات لسانية فارغة، أما الكلام المطبوع الذي تجري فيه هذه العناصر الصوتية على وجهها من غير قصد إليها، فهو من الحُسن الحَسن، ولم ينكره أحد، وإنما استشرف إليه كبار الكتاب وحذاق البيان."[30]

ب- المعاصرون ومحاولاتهم الغوص في هذا الباب

يبدو أن الاستعانة بالتحليل الصوتي في تراثنا العربي، وخاصة في تفسير آي القرآن، لم يجد له أنصارا أو كان متهيَّبا يقف عند الإشارة والتلميح والتذوق، ولم يدخل حيز التطبيق إلا نادرا.

يقول محمود شاكر "هذا باب من أصول اللغة لم يَرْمِ إليه أوائلنا - رضي الله عنهم - إلا إشارة مبهمة ولمحة خافية أو نبذا مهضوما، فهم لم يجردوا له أنظارهم، ولم يحتفلوا لتقصيه وتتبعه واستظهار طرائفه، وهم حين أشاروا أو ألمحوا أو نبذوا، لم يلموا إلا بأطرافه وحدوده، فلم يغمضوا في قلبه وسره ومعدنه ليستنبطوا منه أسراره المستكنة تحت ألفاظ العربية. "[31]

فإذا عدنا إلى كتب القدماء، فلا نكاد نظفر إلا على إشارات متناثرة تربط بعض الظواهر الصوتية بالمعاني، ومن ذلك ما أشرنا إليه عند بعض العلماء وعلى رأسهم ابن جني.

أما المحدثون فلا نعدم لهم بعض المحاولات الجادة في الكشف عن أسرار العربية، ومنهم : محمود شاكر الذي قدم دراسة هامة بعنوان " علم معاني أصوات الحروف " وذيَّل هذا العنوان بقوله " سر من أسرار العربية نرجو أن نصل إلى حقيقته في السليقة العربية ."[32] ومن الإشارات القليلة للطاهر بن عاشور، بخصوص المكون الصوتي، ما أورده في تفسير قوله تعالى { قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ مَّنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِهِ ٱنْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلآيَاتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ }[33] قال " ولعلّ إفراد السمع وجمْع الأبصار جرى على ما يقتضيه تمام الفصاحة من خفَّة أحد اللفظين مُفْرداً والآخر مجموعاً عند اقترانهما، فإنّ في انتظام الحروف والحركات والسكنات في تنقُّل اللسان سِرّاً عجيباً من فصاحة كلام القرآن المعبّر عنها بالنَّظم ." [34]

وكذلك اهتم بالدلالة الصوتية كل من مصطفى صادق الرافعي في كتابه "إعجاز القرآن" وسيد قطب في "ظلال القرآن" وعبد الله دراز في كتابه "النبأ العظيم".

كما وجدنا تامر سلوم يدعو إلى الربط بين الظواهر الصوتية ومعاني العمل الأدبي مع اعترافه بصعوبته، ومن ذلك قوله " تغيرات التشكيل الصوتي كالإدغام والإبدال ذات أثر قوي في تفهم العمل الأدبي، ولها دقة خاصة رغم تعقيدها وغموضها. أما الإدغام فقد لاحظ الناقد القديم أنه يسجل دائما ضعف صوت معين أمام صوت آخر أقوى منه، وأنه يرتد إلى صفة خاصة أو قوة ذاتية في الصوت المؤثر تميزه عن مجاوره الذي يتأثر به، ولهذا المنحى مكانته وأهميته التي لا جدال فيها. ولكن التحليل الجمالي للإدغام ذو مطالب أخرى يجب ألا تهمل ."[35] ويضيف داعيا إلى تعميق البحث في أسرار الظواهر الصوتية فقال " ومعنى ذلك أن هذه الأصوات لا تحمل قيمة بمعزل عن بنائها وتركيبها. وأن ما نسميه مدا

ولينا وتكريرا يأخذ في داخل التركيب دلالة عميقة تؤثر في المعنى بطريقة ما تزال تحتاج إلى تأمل. وقد تتداخل هذه الدلالات بنشاط السياق. ولكن المهم لدينا الآن هو أن نقول إن فاعلية التشكيل الصوتي وما يسمى الصفات الصوتية المتباينة يجب أن يفسر تفسيرا أعمق من هذا المنحى الصوتي الموجه. وأن النشاط الجمالي الصوتي لا يمكن أن ينفصل عما نسميه -ببساطة - إدغاما ومدا أو لينا و إبدالا ووقفا وإسكانا وغير ذلك من مظاهر البناء الصوتي " [36]

وشارك تمام حسان بدوره في هذا المضمار حيث يقول " فالأصوات المسموعة ذات معان طبيعية إيحائية وانطباعية لا هي عرفية ولا ذهنية. فقد تدل المقابلة بين الترقيق والتفخيم على إرادة التأكيد عند تفخيم الصوت. انظر مثلا إلى قوله تعالى في مجرد الإخبار عن خلق الأرض " والأرض بعد ذلك دحاها " النازعات آية 30 **. ثم عندما أريد التأكيد بمناسبة القسم قال " والأرض وما طحاها "** الشمس آية 6 **"**[37]

وقد حاول تمام حسان المساهمة بتفسير بعض آيات القرآن مستثمرا المكون الصوتي وفي ذلك يقول "وإذا قيل إن القرآن معجز فإن بعض إعجازه يعود إلى الجمال. وإذا أردنا أن نتبع عناصر الجمال فيه فلا بد أن ننسبها إلى وسائل تربط المباني بالمعاني ربطا يبعث في النفس الإحساس بالجمال. وتتدرج هذه المباني من مخارج الأصوات وصفاتها إلى صياغة الكلمات المفردة إلى اختيار مفردة دون أخرى إلى ما في النص من الصور البيانية والتصوير الوقائعي إلى غير ذلك من وسائل الجمال. " [38]

ومن نماذج محاولاته التفسيرية المعتمدة على الظواهر الصوتية، ربْطُه بين ظاهرة الإدغام والدلالة في قوله تعالى{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انفِرُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الأَرْضِ }[39] يقول" وهنا أيضا نجد أصل الفعل " تثاقلتم ".. فقلبت التاء ثاء وأدغمت في الثاء فسكنت فاجتلبت لها همزة وصل.. فإذا علمنا أن للتشديد عنصرين أولهما ثاء ساكنة والثاني ثاء متحركة (لأن الحرف المشدد بحرفين) أحسسنا للسكون الذي في العنصر الأول إيحاء بالإخلاد إلى الأرض، وعدم الرغبة في الخروج للجهاد، مما يدل على أن الصوت يحكي الفعل أو على الأصح (عدم الفعل). " [40]

وعن الوظيفة التعبيرية لصفات الحروف، يقدم تمام تحليله لقوله الله تعالى في سورة النازعات "والأرض بعد ذلك دحاها " [41] فيقول " ولو أننا قارنا سياق هذه الآية بسياق آية

الشمس" والأرض وما طحاها"[42] لوجدنا ما كان دالا في " دحاها " قد تحول إلى طاء في " طحاها ". وقد عرفنا من دراسة سيبويه لصوتي الدال والطاء أنه لا فرق بينهما في النطق إلا التفخيم، فلو فخمت الدال لصارت طاء كما يقول، ومعنى ذلك أن العنصر الذي طرأ على الفعل "دحاها " عندما ورد في سورة الشمس هو التفخيم، فما دلالة التفخيم هنا ؟ لو نظرنا إلى الفرق بين السياقين لوجدنا في سورة النازعات سياق "إثبات" مجرد، وما في سورة الشمس سياق " قسم "، ولا شك أن في القسم تأكيدا ليس له مثيل في الإثبات، فإذا سلمنا بهذا الفرق بين السياقين أدركنا أن التفخيم الذي في طحاها جاء لمناسبة ما في القسم من تأكيد " [43].

خاتمة

يمكن القول في الأخير، إن باب ربط الصوت بالمعنى باب " متراحب والخوض فيه واجب " [44] ، رغم أن الجرجاني رحمه الله قد أوصد الأبواب على الكثيرين، بعدم اعتداده بالألفاظ في الإعجاز وفي مزية الكلام، وما يمكن عَدُّه تجميعا لموقف عبد القاهر الذي ظاهره التعارض إزاء الأصوات، هو ما صرح به نفسه في بعض أقواله؛ حيث قبِل تأثير مذاقة الحروف في جودة الكلام، بشرط انضوائها تحت النظم، بأن تكون تابعة له وفرعا عنه، فالشيخ من ثمة لم يَنْفِه البتَّة، وأن معارضته موجهة لمن حصر الإعجاز في اللفظ دون مراعاة للمعنى.

ولا بأس من الإشارة إلى أن البحث الصوتي في حاضرنا محتاج إلى تضافر جهود الدارسين " فليس في الدراسات الصوتية العربية الحديثة - إذا صح لنا أن نعدها عربية - ما يتجه إلى كشف أسرار أنغام الكلام كشفا يعين على تفهم أسرار الأدب، وإنما هي اجتهادات من الدارسين، ورصد لما يجدونه في نفوسهم من أثر هذه الناحية فيما يدرسون من شعر ونثر؛ لأن علم الصوتيات عندنا لا تزال تثقله لكْنة أعجمية تكفُّه عن بحث أسرار سليقة اللغة والأدب. " [45]

المصادر والمراجع

- **ابن تيمية (أبو العباس أحمد)،**
  - **مجموع الفتاوى ،تحقيق: عامر النجار و أنور الباز ،ط2 ، دار الوفاء وابن حزم، مصر، 1998م**
  - **المسودة في أصول الفقه ، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد ،دون ط، مطبعة المدني ، القاهرة ، 1384ه/1964م**
- **الجرجاني (أبو بكر عبد القاهر) ،**

- دلائل الإعجاز ، نسخة أولى : قراءة وتعليق: محمود شاكر ،ط3 ، دار المدني بجدة ،1413ه/ 1992ه
- ..... ، نسخة ثانية ، تحقيق : عبد الحميد هنداوي، ط1، دار الكتب العلمية ، بيروت،1422ه
- أسرار البلاغة ، قرأه وعلق عليه :محمود شاكر، ط1 ، دار المدني بجدة ،1412ه/ 1991م

- ابن جني (أبو الفتح عثمان 392ه)،
  - الخصائص ، تحقيق: محمد علي النجار، ط3، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ، 1406ه/1986م
  - المحتسب في تبيين وجوه شواذ القراءات والإيضاح عنها ،دون ط، تحقيق: علي النجدي ، الزمخشري (جار الله أبو القاسم محمود)،
- حسان (تمام)،
  - اجتهادات لغوية ، ط1، عالم الكتب ، القاهرة ، 2007م
  - البيان في روائع القرآن، ط1،عالم الكتب القاهرة ،1413 ه/ 1993م.
- زاهيد (عبد الحميد)،علاقة الدال بالمدلول عند النحاة العرب ، حوليات كلية اللغة العربية ، مراكش ، العدد الخامس ، 1416ه/1995م، (ص 159-171)
- الزمخشري (جار الله أبو القاسم محمود)،الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل،ط3، دار الكتاب العربي – بيروت،1407ه
- سلوم(تامر) نظرية اللغة والجمال في النقد العربي ،ط1، دار الحوار ، اللاذقية ، سوريا ،1983
- شادي (محمد إبراهيم)، شرح دلائل الإعجاز للجرجاني، دار اليقين ،القاهرة ،دون ط . 2010
- شاكر (محمود) ، جمهرة مقالات الأستاذ محمود محمد شاكر، جمعها عادل سليمان جمال مكتبة الخانجي، القاهرة ، دط دت
- الشجيري(هادي أحمد)، الدراسات اللغوية والنحوية في مؤلفات شيخ الإسلام ابن تيمية،ط1، دار البشائر، بيروت لبنان ، 1422ه/2001م

- طبانة (بدوي) قضايا النقد الأدبي، دار المريخ، الرياض ، السعودية، 1984 م
- ابن عاشور (محمد الطاهر)، التحرير والتنوير "تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد"،ط1،مؤسسة التاريخ العربي ، بيروت ، لبنان،1420ه/2000م
- العشماوي(محمد زكي) قضايا النقد الأدبي بين القديم والحديث ،ط1، دار النهضة، بيروت، 1979م
- قطب (سيد)، النقد الأدبي أصوله ومناهجه ،ط6، دار الشروق ،القاهرة ، 1410ه/1990م
- ابن قيم الجوزية (شمس الدين محمد)
  - جلاء الأفهام في فضل الصلاة على محمد خير الأنام ، تحقيق: شعيب وعبد القادر الأرنؤوط، ط2، دار العروبة – الكويت، 1407ه/1987م
  - بدائع الفوائد ، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان

- **موسى (محمد)،**
  - **مدخل إلى كتابي عبد القاهر الجرجاني ، ط2، مكتبة وهبة ، القاهرة ، 1431هـ/2010م**
  - **الإعجاز البلاغي دراسة تحليلية لتراث أهل العلم، ط4،مكتبة وهبة، القاهرة، 1433هـ/2012م**

(1)- طبانة، قضايا النقد، ص 153

(2) -الجرجاني، أسرار البلاغة، ص 5

(3)-الجرجاني، الدلائل، ص 46

(4)- نفسه ، ص 476

(5) - فيَّل رأيه : ضعفه وخطأه . المعجم الوسيط مادة "فال"

(6)- الدلائل ، ص 522 ،قال شارح الدلائل إبراهيم شادي في هذا الموضع " لا أعرف أحدا من العلماء عد تلاؤم الحروف وحده سببا في الإعجاز أو جعله العمدة في هذا الباب ولكن لما عاد الشيخ إلى ذلك الرأي الوسط الذي لا ينكر مدخل مذاقة الحروف في تأكيد الإعجاز احتاط بإنكار ما يمكن أن يحدث من جعل ذلك هو الأصل في الاعجاز والعمدة فيه ." شرح الدلائل، ص 583

(7)- الدلائل، ص 522

(8)- شادي، شرح الدلائل، ص 586

(9) - ينظر: الدلائل، ص 44

(10) - ابن تيمية، المسودة ص 563 (أصل المسودة لابن تيمية الجد وأتمها ابن تيمية الحفيد شيخ الإسلام)

(11) -ابن تيمية، مجموع الفتاوى، ج9، ص29

(12)- هادي الشجيري، الدراسات اللغوية والنحوية في مؤلفات شيخ الإسلام ابن تيمية ، ص 65

(13)- عبد الحميد زاهيد، علاقة الدال بالمدلول عند النحاة، ص 169

(14)- سورة مريم، آية: 83

(15)- ابن جني، الخصائص، لابن جني ج2 ص 146

(16) -سورة الرحمن،الآية: 66

(17)- الزمخشري، الكشاف،ج4 ص 453

(18) –الخصائص، ج2 ص 160

(19) - المحتسب،ج2 ص19

(20)-سورة الشعراء، الآية: 94

(21)- الكشاف للزمخشري ج3 ص 322

(22) - ابن القيم،بدائع الفوائد، ج1 ص95

(23) - ابن القيم، جلاء الأفهام، ص 147

(24) - نفسه ، ص 149

(25) - ابن القيم، بدائع الفوائد، ج1 ص 108

(26)- سيد قطب، النقد الأدبي أصوله ومناهجه، ص145.
(27)- العشماوي، قضايا النقد، ص 329
(28)- محمد أبو موسى، مدخل إلى كتابي عبد القاهر الجرجاني، ص 71
(29)- محمد أبو موسى، الإعجاز البلاغي، ص 156
(30)- محمد أبو موسى، مدخل إلى كتابي عبد القاهر الجرجاني، ص 71
(31)- محمود شاكر،جمهرة مقالاته ،ص 708
(32)-نفسه ، والصفحة نفسها
(33) - سورة: الأنعام، الآية 46
(34) - ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج6 ص 104.
(35)- سلوم، نظرية اللغة والجمال ،ص 54
(36)- نفسه ، ص 37
(37)- تمام حسان، اجتهادات لغوية، ص 264
(38) - نفسه ، ص 265
(39) - سورة التوبة الآية 38
(40) - تمام حسان، البيان في روائع القرآن، ص 287
(41) - سورة النازعات، آية 30
(42) - سورة الشمس، آية 6
(43) - تمام حسان، البيان في روائع القرآن، ص 289
(44) - محمد محمد أبو موسى، الإعجاز البلاغي، ص 144
(45) - نفسه، ص 145